الفصل الخامس

العوامل الخارجية لتطور الأدب

قلنا إن كل موجود مادىّ أو معنوى يتطور طبقاً لناموس طبيعىّ شرحنا مبادئه، واقتصرنا فى الفصول المتقدمة — إلا إذا استثنينا ما ورد فى ذيل الفصل السابق — على ذكر العوامل المتناقضة التى تصطرع داخله، وتؤثر فى حركة تطوره. ولم نشر إلى العوامل الخارجية التى قد تداهمه فتزيد حركة تطوره سرعة، أو تعرقلها؛ أو تقضى عليها قضاء مبرما.

وإذا فحصنا تطور الأدب، وهو من أسس هذا البحث، وجدنا أن العامل الخارجى الذى يعرقل حركته فى بلد من البلاد، أو يشلها تماماً، هو تعرض ذلك البلد لغزو أجنبى يزعزع أركان حضارته أو يهدمها هدماً. وليس ثمة ما يدعو إلى شرح ذلك لوضوحه. أما الذى يحتاج إلى شرح فهو كنه العوامل الخارجية التى تنشط الحركة الأدبية فى بلد ما، وتزيد تطورها سرعة.

وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى كتابنا « العرب والحضارة الأوربية » فقلنا إن كل نهضة حضارية لا تنمو، وتصل بخطوات حثيثة إلى مرحلة متقدمة من الازدهار، إلا بتأثير نهضة حضارية خارجية تهب عليها نسماتها — والنهضة الأدبية تخضع لهذه القاعدة بطبيعة الحال، فهى من أهم عناصر الحضارة — وتتوقف سرعة تقدمها على درجة استعدادها لتقبل النهضة الوافدة عليها، وللإفادة منها.

بيد أن العدد الأكبر من الكتاب الغربيين يعارض هذا الرأى. ومن هؤلاء الفيلسوف « شبينجلر » الذى أوردنا فى الفصل الأول من هذا البحث وجهة نظره فى هذا الصدد. ولا بأس من أن نشير أيضاً إلى رأى « جوردون إيست » فى نشأة الحضارات نظراً إلى توسعه فى شرح ذلك. فما قاله فى ذلك:

« أين نشأت حضارة العصر الحجرىّ؟ والجواب على ذلك أنها نبتت فى مصر والجزيرة السفلى، ويحتمل كثيراً أنها نبتت بعد ذلك بفترة قصيرة فى شمال غرب الهند أيضاً. وهكذا يبدو أن الحضارة قد ولدت على كثب من أربعة أنهار كبرى

أو على ضفافها : وهى النيل ودجلة والفرات والسند ، ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأن حضارة من هذه الحضارات النهرية قد سبقت غيرها . . . ويحتمل أن يكون أقدم ما عثر عليه من الآثار فى الجزيرة السفلى ومصر ترجع إلى عصر واحد تقريباً . . والحق إن بعض المتخصصين يرى أنه ربما نبتت الحضارة فى هذه الأقاليم الثلاثة من تلقاء نفسها كل منها على حدة مستقلاً عن الآخر . . . وليس هناك سبب قوى يحملنا على الاعتقاد بأن ابتكار الإنسان مستحيل الحدوث فى صورة مستقلة تلقائية فى بقاع عديدة متشابهة »[١] .

وعاد ذلك الكاتب إلى التساؤل ، ثم الإجابة على تساؤله :

« وهل علينا أن نفترض أنه لم يكن للحضارة سوى مصدر واحد انتقلت منه إلى البقاع الأخرى ؟ إن كثيراً من المطاعن توجه فى والواقع إلى هذا الرأى المتطرف الخاص بانتشار الحضارة ، وبخاصة أن كثيراً من مظاهر المدنية مثل الزراعة والكتابة قد تطور فى أمريكا الوسطى قبل اتصالها بالعالم القديم بزمن طويل[٢] » .

ولا جدال فى أن حضارة ما قد تنبت وتقطع ، وهى منعزلة عن غيرها من الحضارات ، مرحلة أولية من مراحل التقدم ، كما حدث فى أمريكا الوسطى — هذا إذا ثبت أن أهلها نشأوا فيها أول ما نشأوا ، وتكاثروا منعزلين عن العالم القديم ، ولم ينتقلوا فى أول الأمر منه إليها ، وينقلوا معهم شيئاً من معارفه كما يرى بعض المؤرخين — ولا جدال أيضاً ، من الناحية النظرية ، أن مثل هذه الحضارة قد تقطع ، وهى فى عزلتها ، شوطاً أبعد من الشوط الأولى فى مضمار التقدم ، وإن كان من المتعذر أن تبلغ الأوج الذى تبلغه حضارة تتصل بحضارات أخرى ، وتبادلها الأخذ والعطاء . . . ولكن ليس كل ما يمكن حدوثه نظريًّا يحدث فى عالم الواقع فعلاً ؛ فإنه لم يحدث فى التاريخ المعروف أن ازدهرت حضارة وهى فى عزلة تامة عن غيرها من الحضارات . والمنكرون لهذه الحقيقة يبنون إنكارهم على افتقارها إلى دليل يقطع بصحتها ! ولكن هل كل حقيقة تحتاج إلى مثل هذا الدليل ؟ أليست أغلب حقائق الوجود مسلم بها دون برهان بحسبانها من البديهيات ، ثم ألا تغنى القرائن

---

(١) صفحة ١٣٩ من كتاب « الجغرافيا توجه التاريخ » ترجمة د . جمال الدين الدناصورى .

(٢) صفحة ١٤٠ من المصدر السابق الذكر .

والاستدلالات فى كثير من الأحيان عن الأدلة والبراهين القاطعة ؟

وليس يصح فى الأذهان شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

ولسنا نحسب أن هناك أحداً يساوره الشك فى قيام صلة بين الحضارات المعروفة التى سجلها التاريخ إلا إذا صوّر له الوهم قيام أسوار أو حدود لا تقتحم بين مختلف الأمم فى العصر القديم ، ولم يفطن إلى أن الشعوب وقتذاك لم تكن تكف عن الهجرة، وعن غزو بعضها لبعض ، وامتزاج بعضها ببعض ، وتنقل القوافل التجارية فيما بينها ... ولم يخطر له أن هذا وذاك كان لابد أن يسفر عن اتصال علوم تلك الأمم وفنونها بعضها ببعض . وإفادة بعضها من بعض ، وتطوير كل منها لمبتكرات الأخرى ، وتعاونها جميعاً على التقدم والترعرع .

ولابد أن الفكر الإنسانى لم يتفتق فى المرحلة الأولى من بزوغه إلا بتبادل الأفكار والمعلومات بين الأفراد قبل تبادلها بين الشعوب . فلا وسيلة لتفتقه إلا هذا التبادل . وليس ثمة برهان على صحة هذا القول ، ولكن ليس فى وسع أحد أيضاً أن ينكره ، أو يهدينا إلى وسيلة أخرى تم بها ذلك التفتق .

إن أول شعاع للوعى بزغ ضئيلاً فى ذهن الإنسان الهمجىّ ، وتطور بطيئاً كتطور البشر من المرحلة شبه الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية . وكانت كل فكرة يوحى بها الواقع إلى ذلك المخلوق الهمجىّ تبدو له غير واضحة . ومن الطبيعىّ أن تتملكه الحيرة ، وتحمله على الإفضاء بفكرته الغامضة ، على نحو ما ، إلى غيره ، ومن ثم يتبادل الأفراد ، بوسيلة تفاهمهم وقتذاك مثل تلك الفكرة المبهمة ، فتتضح فى الأذهان ، عن طريق هذا التبادل ، شيئاً فشيئاً . ثم يخطر لأحدهم أن يمتحنها بتطبيقها عمليًّا ، فإذا التطبيق يقوّمها ويزيدها وضوحاً ، ويمهد السبيل لتولد غيرها ، فيزداد الوعى بذلك نموًّا ، ويهدى الناس إلى وسائل استئناس الحيوان ، ثم إلى إنتاج الأدوات البدائية التى تيسر لهم صعوبات حياتهم الخشنة ، وإذا الإنتاج يكسبهم خبرة ، ويزيدهم بدوره فطنة — على نحو ما شرحناه فى مجال آخر — ثم يتحسن الإنتاج بنمو الخبرة والفطنة ، وتتكاثر الأفكار ، ويطرد تولد بعضها من بعض عن طريق التطبيق وتبادل الرأى . وينعكس ذلك على الإنتاج مرة أخرى ، ويدفعه خطوة أخرى إلى الأمام ، وعلى هذا يتوالى نمو الفكر وتحسن الإنتاج بتأثير كل منهما فى الآخر ، ويتتابع

التقدم ، فإذا اتصل المجتمع الذى حقق هذا التقدم بمجتمع آخر خطا هو أيضاً بضع خطوات فى طريق التقدم ، اكتسب كل منهما خبرة جديدة من الآخر ، وازداد كلاهما فطنة واستنارة . وعلى هذا النحو تدرجت الأمم القديمة فى مدارج الرقى ، وأصبح فى مقدور الأمة التى تهيأت لها أكثر الظروف ملاءمة للتطور والتقدم أن تحقق نهضة حضارية مرموقة . وقد تهيأت مثل هذه الظروف لمصر القديمة ، فبزغ فيها فجر أول حضارة كبرى فى التاريخ .

والذى يتفق عليه أغلب المؤرخين أن هذه الحضارة كانت فعلاً أولى الحضارات الكبرى التى سجلها التاريخ . بل ويقرون بأنها أم الحضارات جميعاً — وإن كانوا يتناسون ذلك عندما تستبد بهم النعرة الأوربية فيزعمون ، كما قلنا ، أن الحضارة الحديثة ليست مدينة بأى فضل إلا للحضارة الإغريقية — وهم ينسبون سبق مصر فى الميدان الحضارىّ إلى نهر النيل الذى جرى بين سهولها فأمدها بمياه أنبتت زرعها ، وبطمىّ أخصب تربتها ، فوفر لها قوتاً مستطاع التخزين ، وأماناً من الجوع ، وبعض الفراغ للراحة والتفكير مما لم يكن يتاح أيام الاعتماد على الصيد وحده لسد الرمق . ثم امتدت رقعة أراضيها الزراعية امتداداً وفّر لها الغنى الذى زاد أهلها استقراراً وأماناً ، فاشرأبوا إلى حياة أرفع مستوى ، وكدوا أذهانهم لابتكار الوسائل التى تحقق هذا المأرب ، واهتدوا شيئاً فشيئاً إلى بعض الصناعات الزراعية ، وإلى تسجيل الأرقام بالكتابة ، وتسجيل الآراء والمقاصد بالصور ثم بالكلمات . ولجأوا إلى التجارة لتوفير الحاجيات التى تنقصهم ، واحتاجت التجارة إلى التوسع والتقدم فى ميدان الصناعة ؛ وأدى هذا التوسع التقدم إلى النتيجة المحتومة التى تكرر ذكرها ، وهى تزايد خبرتهم ، ونمو إدراكهم وفطنتهم ، وتحسن صناعتهم تبعاً لذلك ، واطراد ارتفاع مستوى خبرتهم وفطنتهم وصناعتهم نتيجة لتأثير تقدم كل منها فى غيرها على التوالى .

ولكن الفضل الأكبر فى اتجاه قدماء المصريين إلى ميدان العلم ، وتقدمهم فى مضماره يرجع إلى فيضان النيل . فقد أحوجتهم الزراعة إلى معرفة موعد حلوله على وجه التحديد ، ودعاهم ذلك إلى دراسة علم الفلك للاهتداء إلى تقويم زمنى دقيق ، فعرفوا عدد أيام العام الذى قسموه إلى أشهر وفصول ، واستطاعوا أن يحددوا مواعيد

دقيقة للزراعة زادت محاصيلها وفرة . ولم يتوصلوا إلى تحقيق هذا كله إلا بعد تبحرهم فى العلوم الرياضية ، ووقوفهم على كثير من نظرياتها ، وتوصلهم إلى تطبيقها فى ميدان الصناعة والبناء العمرانى . وتوالت كشوفهم العلمية ، فطورت قدرتهم الإبداعية . ومكنتهم من إنتاج المزيد من مختلف أسباب الرفاهية . وقطع شوط بعيد فى مضمار التقدم الحضارى . فتهذبت مشاعرهم وأذواقهم على قدر هذا التقدم ، وازدهرت فنونهم وآدابهم التى استهدفت أول الأمر خدمة الأغراض الدينية . ثم انطلقت إلى خدمة المجتمع ونهضته الحضارية . وامتد إشعاعها إلى البلاد المحيطة بها ، ثم تنقل بين مختلف الأمم ، وتطور فى كل أمة حل به . واتخذ الطابع الذى يلائمها . . .

وتتصل ثقافة بلد من البلاد بثقافة أجنبية عنها إما عن طريق الوفادة أو عن طريق الاجتلاب .

فالثقافة الأجنبية تفد على ذلك البلد مع غزاة فاتحين ، أو تجار أو مسافرين . وهو يجتلبها بنفسه إذا تهيأت لقومه ظروف اليقظة الفكرية . فتنبه وعيهم ، ونما إدراكهم . وشعروا بتخلفهم فاشرأبوا إلى البلاد الأخرى ينقلون عنها علومها وفنونها ، ونظام الحكم فيها ، وسائر أسباب نهضتها .

والغزو الأجنبى غالباً ما يكون الحافز الرئيسى لتلك اليقظة . فقهر الغزاة للأمة المقهورة يشعرها بضعفها . ويحفزها إلى تعلم فنونهم العسكرية التى كفلت لهم النصر . وتلقن علومهم التى مكنتهم من إنتاج عدتهم الحربية ، وابتكار أنظمتهم السياسية . وهى تواصل العمل على إنماء معارفها حتى بعد تخلصها من غزاتها ، وتجتلب ألوان الثقافة من مختلف المصادر . فيكون الغزو أيضاً سبباً هاماً من أسباب اجتلاب الثقافات الأجنبية .

وإذا نظرنا إلى حضارات الأمم القديمة المتجاورة التى تعدد غزو بعضها لبعض نجد التشابه بينها وثيقاً إلى حد يكاد يجزم بتزاوجها . فالمعابد والتماثيل والأضرحة الأثرية وغيرها من الآثار الحضارية . ومن التقاليد التى جالدت الزمن فى بلاد الفرس والهند والصين واليابان وجزر الهند الشرقية وما جاورها من بلاد الشرق الأقصى تكاد تتجانس . وكذلك تتشابه ديانات تلك البلاد وثقافاتها تشابهاً لا يتوفر

إلا بالتلقن أو الاقتباس . وتدل آثار بابل وآشور وفينيقيا على أن مبدعيها تأثروا بفنون كل من الحضارة الآسيوية وحضارة مصر القديمة . . . ولا عجب فقد كانت تلك البلاد الواقعة بين سائر البلاد الأسيوية ومصر مرتاداً لجيوشها ، ولقوافل التجارة المتنقلة بينها . ومركزاً تتنقل الحضارات عبره .

وقد قلنا إن أكثر مؤرخي الغرب يؤكدون أن الحضارة الأوربية الحديثة لم تتولد إلا من الحضارة الإغريقية ، ويستندون فى ذلك إلى أن غزو الرومان لوسط أوربا وغربها . وغزو الألمان والنورمانديين لإنجلترا هما اللذان لفتا الشعوب المغزوة إلى ثقافة الغزاة ، فتأثرت بها ، وتسرب فيض من الكلمات اللاتينية إلى لغاتها فأغناها ، وأقبل مثقفوها على مصنفات الرومان فنهلوا مما تضمنته من العلوم والفنون الرومانية والإغريقية . ومن ثم بدأ نمو النهضة الأوربية الحديثة ؛ وازداد هذا النمو ترعرعاً بنزوح علماء الإغريق إلى غرب أوربا ، بعد سقوط القسطنطينية . مزودين بما لديهم من المصنفات الإغريقية القديمة .

وقلنا أيضاً إن هؤلاء المؤلفين يغفلون الإشارة إلى فضل الحضارة الشرقية حضارة على حضارة الإغريق بالرغم من تسليمهم ، عند تحدثهم عن مصر القديمة ، بأن حضارتها كانت مهد الحضارات جميعاً . وإذا كان هذا الفضل يحتاج إلى استشهاد جديد[١] . فلا بأس من أن نستشهد بقول الدكتور فؤاد زكريا فى هذا الصدد : « كان أول اتصال سجله التاريخ بين حضارة الشرق الأوسط والغرب يمثل مرحلة عطاء كبرى من الشرق إلى الغرب . . . وهذا أمر طبيعي لأن الشرق الأوسط ، كما هو معروف . كان المهد الأول للحضارة العالمية الحالية . وقد كان لحركة العطاء هذه مظهر علمي وفلسفي فى مطلع العصور القديمة ؛ ذلك أن فلسفة اليونانيين حين أخذت بوادرها فى الظهور ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، كانت فى واقع الأمر نقطة نهاية تطور فكري وعلمي فى الشرق بقدر ما كانت نقطة بداية تطور عقلي فى الغرب . وفى كل يوم يزداد رجحان كفة الرأى القائل بأن الفلسفة اليونانية لم تبدأ تلقائية — كما تصور الكثيرون فى القرن الماضى — وإنما كان ظهورها على أرض اليونان نتيجة لمؤثرات قوية مستمدة أساساً من الحضارات القديمة فى الشرق .

---

(١) يراجع رأى ويليام والاس الذى ذكرناه فى الفصل الأول من كتابنا هذا .

ومن المؤكد أن الكلام عن « المعجزة اليونانية » ليس إلا اعترافاً بالعجز عن تعليل قيام هذه الظاهرة الفذة فى تاريخ الفكر البشرىّ . . . فالتفكير العلمى يأبى الاعتراف بمثل هذه الطفرات المفاجئة ، ويكشف لنا عن أدلة متزايدة على وجود تطور متدرج من الحكمة الشرقية إلى التفلسف اليونانى . ويكفى لإثبات ذلك أن نقول إن أولى المدارس الفلسفية اليونانية نشأت فى مدن تنتمى جغرافيًّا إلى الشرق الأوسط . . . فضلاً عن زيارات كبار الفلاسفة اليونانيين الأوائل لبلاد الشرق وتأثرهم بعلمها هى حقائق ثابتة تاريخيًّا ... وكانت شخصية أفلاطون ، وهى أضخم الشخصيات فى الفلسفة اليونانية ، تجمع فى ذاتها خلاصة هذه المؤثرات الشرقية . ذلك لأنه قام برحلات متعددة فى الشرق ، وخاصة مصر ، واقتبس من حكمة الشرق عناصر كثيرة . . . وفى وسع المرء أن يقول ، بعد التحليل الدقيق لاتجاهات فكره ، إنه كان فيلسوفاً نصف شرقى ، ونصف يونانى [١] » .

وبثبوت فضل ثقافة الشرق على الثقافة الإغريقية تكون أوربا مدينة له أيضاً بهذا الفضل عن طريق غير مباشر ما دامت تسلم بأن نهضتها الحديثة متولدة من أصول إغريقية . . . ولكن الأمر يقف عند هذا الحد ، فالحقيقة التى يتزايد وضوحها يوماً بعد يوم فى الوقت الحاضر ، ويتكاثر عدد المقرين بها حتى من مؤرخى الغرب أنفسهم ، هى أن أوربا — وإن أفادت من الفكر الإغريقى — مدينة للشرق ، وعلى الأخص للشرق العربى ، بانبثاق فجر نهضتها ، فهى لم تهتد إلى طريق التقدم الصحيح ، وتضع قدمها على بدايته ، إلا يوم وفدت عليها الثقافة العربية فى القرن الثانى عشر ، وأمدتها بفيض من علومها وآدابها ، وبهرتها بطابعها الإنسانى المهذب ، فتحولت عن الموارد الثقافية الإغريقية إلى الموارد الجديدة تنهل من معينها العذب .

لم يكن العرب يضنون على الغرب بتلقينه معارفهم ، على عكس ما درج عليه الفاتحون السابقون الذين لم يقصدوا بغزواتهم غير السلب والنهب ، وتوسيع نطاق الملك والسلطان ، وتحقيق الأمجاد . فالفتوحات الإسلامية اختطت خطة تهذيبية

---

(١) بحث بعنوان « نحن وثقافة الغرب » ، منشور بالعدد التاسع من مجلة الفكر المعاصر ، الصادر فى نوفمبر من عام ١٩٦٥ .

تثقيفية لأول مرة فى تاريخ الفتوحات ، واستهدفت تحقيق رسالة تسمو على مجرد الفوز بالأسلاب والأمجاد . . . لقد كان هدفها الأول نشر الإسلام ، وتلقين الناس تعاليمه النبيلة ، وهدايتهم إلى مقاصده الجليلة ؛ ولهذا لم يبطئ انتشار الثقافة العربية الإسلامية بين أمم البلاد المفتوحة كما كان يحدث من قبل ، فقد أسفر اهتمام العرب بغرس بذور علومهم وآدابهم وفنونهم فى تلك البلاد عن سرعة نمو ذلك الغرس الذى بلغ ذروة نمائه بانتقاله من الأندلس إلى أوربا ، واختلاطه بالثقافة الأوربية التى كانت متأثرة وقتذاك بالثقافة الإغريقية ، وتمخضه بعد ذلك الاختلاط عن حضارة العصر الحديث .

ولم تجرؤ البلاد المتحضرة ، بعد الفتوحات الإسلامية ، على شن حروبها التوسعية الاستغلالية دون تبريرها بدعوى استهداف أهداف إنسانية أو حضارية . وقد وضح ذلك جليًّا عندما شن نابليون حروبه التى كانت مصر من أوائل البلاد التى اكتوت بنارها . فقد ادعى ذلك العسكرىّ الطموح أنه لا يقصد من وراء غزواته إلا نشر مبادئ الثورة الفرنسية ، والقضاء على القوى الرجعية التى تحاول خنقها وهى فى مهدها ، وتقويض نظام الإقطاع المعيق للتطور الحضارىّ . . . بيد أن سيرة نابليون تدلنا على أن هذه الأهداف كانت ثانوية فى نظره ، أما هدفه الرئيسى من غزواته فكان إنشاء إمبراطورية عالمية يبسط عليها سلطانه ، فيحقق بذلك مجداً لم يسبقه أحد إلى تحقيقه . . . ولكن تلك الأطماع الشخصية لم تحل دون تحقق النتائج المحتومة لغزوات جيوش الثورة ، وهى تقويض أركان الإقطاع ، واستتباب النظام الرأسمالىّ ، وتقارب الدول الأوربية ، وتزاوج ثقافاتها وتوالدها وتحولها إلى اتجاهات جديدة ، وازدياد سرعة تطورها .

ومن الواضح أن غزو نابليون لبلادنا أيقظ وعينا ، وحملنا على التطلع إلى الثقافة الغربية التى نهضت بأوربا ، ومكنتها من صنع الأسلحة التى تغلبت بها علينا ؛ فأخذنا نغترف من نبع علومها وآدابها أملاً فى مجاراتها واللحاق بها فى ميدانى العلم والأدب .

ومن الواضح أيضاً أن هذه النتيجة لم تخطر ببال نابليون قط ، فسبب غزوه لمصر معروف ، وهدفه منه محدد ؛ أما اصطحابه فى حملته على بلادنا جماعة من

علماء بلده فلم يكن القصد منه تلقيننا علوم الغرب وفنونه ، ولكن دراسة مصر على نحو يمكن فرنسا من استغلالها ، أو الإفادة من احتلالها على أفضل وجه . . . وعلى الرغم من هدف نابليون الاستغلالىّ ، عاد نشاط هؤلاء العلماء على مصر وفرنسا ، بل على العالم أجمع ، بفوائد علمية لا تنكر .

وأحدثت حملة نابليون على إسبانيا أيضاً أثرها المفيد ، غير المقصود ، فقد استيقظ الوعى القومى هناك على دقات طبول الحرب ، وهب الشعب الإسبانى مدافعاً عن وطنه ، وعن حريته وكرامته ، وخاضت آدابه وفنونه ميدان الكفاح إلى جانبه ، وما انحسرت غمة الغزو حتى حققت تلك الآداب والفنون نهضة لا شك أنها مدينة بها للثقافة الفرنسية إلى حد كبير .

وأفاقت روسيا من سباتها أيضاً بعد غزو نابليون لأراضيها ، وحاولت النهوض بمحاكاة أسلوب الحياة فى فرنسا ، فأخذ المجتمع الروسىّ المثقف يتشبه بالمجتمع الباريسى ، وخضع الأدب أول الأمر لأحكام ذلك الوضع ، وحرص على إرضاء قرائه من المثقفين المتأثرين بالذوق الفرنسى ، فحاكى بدوره أدب فرنسا ، وجنح بعضه إلى محاكاة أدب ألمانيا ، ولكنه لم يلبث أن نما ونضج ، واستطاع أن يحقق لنفسه طابعاً مستقلاً ، وظهرت أصالته فى أعمال بوشكين وجوجول ، ثم تولستوى ودوستوييفسكى وغيرهم . . .

* * *

وابتلى العالم بعد حروب نابليون بالحروب الاستعمارية التى لجأ موقدو نارها أيضاً إلى ادعاء الدعاوى المضللة ، فزعموا أنهم لم يقصدوا بها إلا نشر حضارة الرجل الأبيض فى البلاد المتخلفة . ولكن هذه الأكذوبة لم تعد تخفى على أحد بعد أن طال احتلالهم للبلاد التى فتحوها ، وظلت شعوبها مع ذلك راسغة فى أغلال الجهل والفقر والمرض . وكل من يقف على السياسة التى اتبعوها فى تلك البلاد يوقن أنهم لم يحققوا فيها إلا عكس ما ادعو ، فقد بذلوا كل ما فى وسعهم للحيلولة دون يقظة تلك الشعوب حتى يضمنوا استمرار استنزافهم لموارد خيراتها . ولكن كل جهد بذلوه فى تلك السبيل ذهب سدى ، فسرعان ما أيقظ الغزو وعى الشعوب المغزوة بعد أن فتح لها ، على الرغم منه ، نوافذ على الحضارة العالمية ، واستثارها استغلال الغزاة

واستبدادهم، وأشعراها بالغبن الذى تعانيه ، ونبّهاها إلى حقها المهضوم ، فثارت عليهم ، وناضلت فى سبيل الخلاص منهم ، وظهر بينها شعراء صوروا لها بؤس حالها ، وتحسروا على الحرية المسلوبة ، والحق المغتصب ، فأجج ذلك ضرام نضالها ، وزادها تصميما على الفوز باستقلالها . ومن ثم ازداد نشاط حركتها الأدبية ، ونهضتها الفكرية ، المستمدتين أصلاً من جذور ثقافات أجنبية . وتعاونت على السموّ حتى تحققت النتيجة المحتومة ، وهى نمو إدراك تلك الشعوب ، وتأجج شعورها الوطنى ، ونشاط تطورها التقدمىّ إلى الحد الذى جعل بقاء المستعمر بينها مستحيلا ، ولم يلبث عدد كبير منها أن حقق استقلاله ، وسار قدماً صوب نهضة ثقافية لا شك أنه سيحققها هى أيضاً ، وسيبلغ بها مستوى ثقافات الأمم المتحضرة .

* * *

وهناك من يظن أن أمة العرب كانت ضحلة الثقافة قبل اطلاع علمائها على الفلسفة الإغريقية . ولكن الواقع يخالف هذا الظن ، فقد كانت قبل ذلك ذات نهضة أدبية وعلمية مرموقة نبتت أصلاً مما وصل إلى الجزيرة العربية من معارف حضارتين عريقتين سابقتين على الحضارة الإغريقية هما حضارتا الفرس والمصريين القدماء . وكان اقتباس العرب لما وافقهم من حضارة الفرس أمراً طبيعيًّا نظراً إلى تجاور الشعبين ، واحتكاك كل منهما بالآخر . أما ما اقتبسوه من مبتكرات الحضارة المصرية فقد وصل إليهم عن طريقين تجاريين ، أولهما طريق الحبشة فاليمن ، وثانيهما طريق سيناء ففلسطين ؛ ثم وقع الاتصال المباشر بين العرب والمصريين بعد غزوات الجيوش المصرية القديمة لشمال الجزيرة ، فازداد تأثر الأمة العربية بالثقافة المصرية ، ولم تلبث علومها وآدابها أن تعدت طور المحاكاة ، واصطبغت بصبغة عربية مستقلة ؛ فلما اغترفت بعد ذلك من معين الثقافة الإغريقية — المتأثرة هى أيضاً بالثقافة المصرية القديمة — لم تقم صعوبة دون استيعابها وهضمها ، وتوسيع أفقها بالشروح والإضافات ، وأدى ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى ازدياد النهضة الثقافية العربية غنى وسموًّا .

وفى وسعنا أن نقول ، بعد ما تقدم إن قبساً من الثقافة المصرية القديمة انتقل إلى العرب مرة عن طريق التجارة مع مصر ، ومرة أخرى عن طريق الإغريق بعد

أن تطور ، وتكيف فى البلاد الإغريقية تكيفاً جديداً .

وبعد هذا الاسترشاد بالواقع التاريخى نستطيع أن نقول مرة أخرى ، دون تعرض للخطأ ، إن ثقافات الأمم لا تكف عن التنقل ، وعن الاختلاط بعضها ببعض فى حلها وترحالها ، وعن تولد جديدها من قديمها ، واكتسابها صفات جديدة فى كل بلد تحل به ، وإن هذه الرحلات هى التى تطورها ، وتمدها دون انقطاع بأسباب جديدة لنموها وسموها المتزايدين على مر القرون .

* * *

وإذا انتقلنا إلى عصرنا الحاضر وجدنا أثر الاتصال الثقافى فيه أشد وضوحاً ، وأدل على صحة ما حاولنا إثباته . فهذا الاتصال يتم فى الوقت الحاضر دون حاجة إلى انتظار هجرة تقوم بها قبيلة متنقلة ، أو غزوة يشنها غزاة فاتحون ، أو رحلة يقدم عليها تجار متنقلون ، فالأمم تسعى إليه اليوم عن قصد ، مدركة لأهميته القصوى بعد أن كان يحدث عفواً ، وبطرق لم تكن تستهدفه أصلاً . ولم تعد أمة واعية فى هذا العصر تتوانى عن تلقف كل مبتكر فى ميادين العلم والفن والأدب ، ودراسته فى عناية ، ومعالجة ما قد يشوبه من عيب أو نقص ، وتطويره ، وتوليد ابتكارات جديدة منه ، وإضافة لبنة ، أو لبنات جديدة فى كل يوم إلى صرح الثقافة العالمية التى أصبحت سرعة تقدمها لا تقل عن سرعة وسائل المواصلات الحديثة .

وإذا بدا هذا التقدم واضحاً فى ميدان العلم دون ميدان الأدب والفن ، فهذا لا يعنى انحصار نشاطه فى هذا الميدان الأخير ، فهو يدب اليوم فى كل فرع من فروع الثقافة وإن وضح دبيبه هنا وخفى هناك . ومع التسليم بتباطؤ التقدم نسبيًّا فى ميدان الأدب والفن ، فليس مرد ذلك إلا إلى نكسات نشأت عن الحروب الحديثة الطاحنة التى شككت الأمم المتجاورة فى القيم الإنسانية ، والمثل العليا ، بيد أن هذه الغمة لن تدوم — فليس ثمة شىء دائم ، بل إنها سوف تسفر عن ازدهار لون جديد من الأدب والفن يحقق وثبة تعوض ما فاتها فى سباق الرقىّ الحضارىّ العام .

وإذا كانت ثقافات الأمم الغازية قد قامت فى الزمن الغابر ، إلى جانب الغزو العسكرىّ ، بعملية غزو معنوى لثقافات البلاد المقهورة وأمدتها بأسباب التقدم

الحضاريّ ، فإن الدول المستعمرة – بكسر الميم – فى عصرنا الراهن حاولت ، ولا تزال تحاول أن تحجب عن الأمم التى استعمرتها ، وأمعنت فى استغلالها ، نور الثقافة العصرية ، وأن تمنعها من الأخذ بأسباب التقدم الحضاريّ الحديث . بل إنها لا تكف عن بث الأفكار الرجعية فى الأمم المتخلفة لتضمن دوام تخلفها ، كما سبق أن قلنا . . . ولكن هذا الجهد يضيع سدى لأن نور الحضارة يخترق كل حجاب ، وينتشر فى كل مكان ، ويفتق مختلف الأذهان . ويحفز الأمم المتخلفة إلى السعى للحاق بالركب الحضاريّ العام .

ومحصل ما تقدم أن الحضارة لم تزدهر ازدهارها الحديث الباهر إلا باتصال حضارات الأمم المختلفة بعضها ببعض على مر التاريخ ، وإفادة بعضها من بعض . . والتبادل الثقافى الدائر اليوم بين مختلف الأمم هو الكفيل باطراد تقدمها الحضاريّ ، فلا غضاضة على بلد يستعين فى ميادين العلم والأدب والفن بخبرات بلاد أخرى ليحقق ما يصبو إليه من تقدم ما دامت الحضارات الحديثة ثمرة جهود الجميع ، ومن ثم ملكاً للجميع [١] . ولكن الغضاضة فى أن يظل تابعاً فكريًّا وثقافيًّا لثقافات أجنبية .

ومنذ أوائل القرن الحالى فطن بعض مؤرخى الأدب إلى ما كان لهذه الاتصالات الثقافية من أهمية ، ومن أثر فعال فى بعث مختلف النهضات الأدبية . ولم يلبث أن تخصص عدد منهم فى دراسة هذه الاتصالات ، وتعددت البحوث فى شأنها حتى وضحت معالمها ، وتحددت أهدافها . وصار لها كيان خاص مستقل عن التاريخ الأدبى . ولم يلبث أغلب المشتغلين بها أن أطلقوا عليها اسم « الأدب المقارن » بحسبانها علماً قائماً بذاته .

وشرح « ماريوس جويار » هذا العلم الجديد بقوله : « ليس الأدب المقارن مجرد مقارنة إنتاج بإنتاج ، أيًّا كان زمانهما أو مكانهما ، فغايته ليست الموازنة الأدبية ، ودراسة المشابهات والمفارقات . . . وإنما هو فرع من التاريخ الأدبىّ غايته دراسة العلاقات الدولية الروحية والواقعية . . . وهو لا ينظر إلى الأعمال الأدبية

---

(١) يراجع الفصل الأول من كتاب « العرب والحضارة الأوربية » للمؤلف ، وقد صدر فى ١٥ أغسطس عام ١٩٦١ ضمن سلسلة « المكتبة الثقافية » .

من حيث قيمها الأصلية . وإنما يعنى على الأخص بالتحولات التى تخضع لها كل أمة ، وكل مؤلف »[١] . . .

وقد اقترح الكاتب المذكور تسمية هذا العلم باسم « تاريخ العلاقات الأدبية الدولية » ، حتى يكون الاسم أدق تعريفاً بالموضوع المسمى .

واتصال مختلف الآداب بعضها ببعض يكون أول الأمر عن طريق الاقتباس المباشر ، ثم الاقتباس غير المباشر . « فهو مباشر عندما يصمم فيكتور هوجو — مثلاً — على بعث التراجيديا الشيكسبيرية فوق خشبة المسرح الفرنسى ، ثم يصبح غير مباشر حين يقتبس خلفه مسرحياتهم التراجيدية منه . . . وعلى قدر ابتعاد الأعمال المقتبسة عن مصدرها يكون الاقتباس غير قابل لتتبع أثره . . . »[٢]

ولا نكران أن الأعمال الأدبية ذات الصفات المتميزة ، والتأثير العميق ، تتمخض ، حين تنتقل إلى بلد أجنبى ، عن أعمال أدبية جديدة تكتسب خصائص وسمات مستمدة من مختلف ميول المجتمع الذى انتقلت إليه ، ومن مختلف اتجاهاته الفكرية ، وأمزجة كبار كتابه . ولكنها على الرغم من ذلك ، وخلافاً لما قرره « جويار » ، لا تفقد الطابع العام والخصائص الرئيسية للأصل الذى تولدت منه ، ومن ثم لا يتعذر على الباحث المدقق اقتفاء أثر ذلك الأصل ؛ ولو كان الأمر غير ذلك لأصبح الأدب المقارن غير ذى قيمة كبيرة . . . على أن جويار نفسه عاد فأقر بأن « الأدب المقارن نشأ فى الأصل من إدراك للعالمية الأدبية . وهل يتيسر مثل هذا الإدراك إذا لم يظل تأثير الآداب العالمية بعضها فى بعض واضحاً على مر القرون ؟ »

بيد أن هذا الكاتب ، بالرغم من تحدثه عن « العالمية الأدبية » اقتصر فى كتابه المذكور على بحث الصلة بين بعض كتّاب أوربا وبعضهم الآخر ؛ وقد أوقعه ذلك فى التقصير مرتين : أولاهما أنه حسب ، حين لم يخرج ببحثه عن حدود الأدب الأوربى — وهذا شأن أغلب الأوربيين — أن العالم منحصر فى أوربا وحدها ؛ وكان أولى به أن يدعو كتابه مثلا « الأدب المقارن الأوربى » ، أو « الأدب المقارن

---

(١) تراجع مقدمة كتابه « الأدب المقارن » ترجمة الدكتور محمد غلاب .

(٢) الكتاب المذكور صفحة ١٧ .

فى أوربا » . . . إنه لم يشر قط إلى أثر الأدب الشرقى فى أدب قارته . والتزم ذلك حتى حين سنحت له فرص الإشارة إليه ، فهو حينما تحدث عن جنوح بعض الكتاب المسرحيين الفرنسيين ، فى عصر النهضة ، إلى اقتباس موضوعاتهم من الأدب الإسبانى[١] ، تغاضى عن ذكر الأصل الذى اقتبس منه الأسبان أعمالهم الأدبية ، وهو الأدب الأندلسىّ العربىّ . . . أما تقصيره الثانى فهو انحصار بحثه — أو الجانب الأكبر من بحثه — فى العلاقات الأدبية الثنائية القائمة بين أفراد من الكتاب المنتمين إلى بلاد أوربية مختلفة ؛ ومثل هذه العلاقات لا تعدو أن تكون مجرد جمع « استدلالات » — على حد تعبير القانونيين — أو جمع معلومات يستعين بها جامعها على كشف الحقائق التى يستهدفها « الأدب المقارن » ؛ وهى العلاقات القائمة بين مختلف الآداب العالمية .

وقد فطن « ڤان تيجيم » إلى ذلك ، وشرح وجهة نظره فى هذا الصدد بقوله[٢] : « الأدب المقارن طريق إلى معرفة أعم . . . إلى إدراك عالمىّ إجمالىّ شامل للحركات الأدبية الهامة . ولئن كان كثير من أبحاث " الأدب المقارن " تستهدف هذه الغاية ، إلا أنها ترينا الأرض الموعودة من بعيد ، ولا تقودنا إليها ، بل لاترشدنا إلى طريقها . . إنها تدرس فى الغالب علاقات ثنائية ، أى علاقات بين عنصرين فحسب ، سواء أكان هذان العنصران كتابين أم كاتبين ، أم أدبين كاملين ، أم طائفتين من الكتب أو الكتاب . . . ولا شك أن اكتشاف هذه العلاقات الثنائية القائمة بين معط وآخذ — مع الإشارة إلى الناقل الوسيط فى بعض الأحيان — أمر شائق فى ذاته ، فضلاً عن توسيعه لدائرة معارفنا ؛ ولكن هل هو يؤدى إلى إدراك ظاهرة أدبية عالمية كبرى ؟ . . . وحتى حين تكون لدينا تواريخ دقيقة للأساليب والأفكار والعواطف فى أدب بلد من البلاد ، فهل يغنى ذلك عن الوقوف على " تاريخ واحد " لكل تيار عام من التيارات الأدبية العالمية ؟ . . . إن هذه المعلومات لها قيمة فى ذاتها ، ولكنها لا تساهم إلا بنسبة ضئيلة فى رسم شبكة التيارات الأدبية التى يتكون منها التاريخ الأدبى العالمى » .

---

(١) صفحة ٢١ من كتابه المذكور .

(٢) كتاب « ڤان تيجيم » المدعو أيضاً « الأدب المقارن » ، ص ١٧١ من الطبعة العربية الصادرة من دار الفكر العربى .

وقد رأى « ڤان تيجيم » ، بعد شرحه المتقدم ، أن يستمر « الأدب المقارن » فى بذل نشاطه داخل الحدود التى لم يتجاوزها إلى الآن ، واقترح تخصيص فرع جديد من التاريخ الأدبى يسمى « الأدب العام » ، يتجه نشاطه إلى بحث جذور الظواهر الأدبية التى تنتسب إلى عدة آداب ، وحجته فى ذلك أن المرء لا يستطيع فهم مختلف الآداب فى تفصيلاتها اللامتناهية ، وخصائصها القومية ، إلا بعد دراستها فى جملتها ، وفى خصائصها العالمية . ويكون « للأدب العام » فى هذه الحالة فائدة مزدوجة ، فهو من ناحية يساعد المؤرخ لأدب أمة من الأمم أن يفهم الكتاب الذى يدرسه على وجه أكمل وأعمق بعد ربطه بالأدب العالمى الذى ينتسب إليه ، وهو فى ذاته ، من ناحية أخرى ، أعمق فروع الدراسات الأدبية التاريخية وأبعدها أثراً . . . ومما قاله « ڤان تيجيم » أيضاً عن « الأدب العام » المقترح « إن على الباحث فى محيطه أن يدرس فى تدقيق مختلف الظواهر الفكرية والعاطفية البادية فى عالم الأدب ، وأن يميز بينها ، ويحدد زمان نشأة كل منها ومكانها ، ويتتبع تطورها ، ويمتحن الظروف التى تعرقل هذا التطور أو تنشطه ؛ ويدرس الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية التى تؤثر فى تلك الظواهر ، والتيارات الأدبية الأجنبية التى تجددها وتزيدها حيوية وقوة » .

ونحن نرى أن هذه الدراسات تدخل فى صميم « الأدب المقارن » ، وفصلها عنه يفقده الجانب الأكبر من قيمته وأهميته . فليس ثمة ما يدعو إلى تخصيص علم جديد لها .

وعلى الرغم مما اعتور بحوث الأدب المقارن من قصور لم يتيسر التغلب عليه إلى الآن ، فإنها كشفت عن مدى تأثر الآداب العالمية بعضها ببعض ، وأهمية ذلك التأثر فى شرح التطور الأدبىّ العام . ولعل هذا يفسر حرصنا فى الفصول السابقة على النظر إلى هذا الأمر من نواح مختلفة ، فشرحنا المسهب لوسائل اتصال الآداب المختلفة ، وعوامل تطورها ، وأسباب ازدهارها أو تدهورها سيسهل مهمتنا فى الفصول التالية ، وييسر تتبعنا لرحلة الأدب العربىّ إلى أوربا ، ثم عبوره المانش إلى إنجلترا ، ومدى الأثر المحتوم الذى أحدثه فى كل بلد حل به .

* * *

وهناك عامل آخر من العوامل الخارجية لتطور الأدب ، وهو العامل الجغرافى . وقد أشرنا إليه عرضاً عند ذكر الحقيقة التى تنبه إليها مؤرخو الحضارات ، وهى أن كل الحضارات القديمة نبتت على ضفاف أنهار كبيرة ؛ فمواقعها الجغرافية هى التى يسرت لها الازدهار الزراعى والاقتصادىّ وما ترتب عليهما من رقىّ فكرىّ ، وازدهار صناعىّ وفنىّ وأدبىّ .

وكان الاعتقاد السائد بين الإغريق أنهم مدينون برقيهم الحضارىّ ، وازدهار فنونهم وآدابهم ، إلى جو بلادهم المعتدل الذى أمدهم بالنشاط الجثمانى والذهنى ، فى حين جمّد برد بلاد الشمال نشاط شعوبها ، وأشاع الحر الخمول فى شعوب بلاد الجنوب .

وطوّر بعض فلاسفة الإغريق ذلك الاعتقاد حتى انتهوا به إلى أن للبيئة الجغرافية أثراً رئيسيًّا حتميًّا فى مجرى التاريخ. ثم أعقبهم فلاسفة غربيون آمنوا كذلك بالحتم البيئى ، وحاولوا تفسير وقائع التاريخ المتعددة المعقدة ، ومختلف النهضات الأدبية والفنية المتداخلة المتشابكة ، على ضوء عامل واحد هو العامل الجغرافىّ . ولكن هذا الاتجاه المتطرف لم يلق تأييداً من المؤرخين فى عصرنا الحاضر ، واهتم « توينبى » بإظهار قصوره ، وأقام مختلف الحجج على ذلك[1] .

ولم ينكر بعض أولئك المؤرخين كل صلة بين المناخ ونشأة الحضارات القديمة وتطورها ، ولكنهم لم يقتصروا على النظر إليه من ناحية أثره فى النشاط الجثمانىّ والعقلى ، بل تجاوزوا ذلك فنظروا إلى ناحية صلاحيته لنمو أعشاب تصلح لرعى الحيوانات المستأنسة ، ونمو مزروعات توفر الطمأنينة والاستقرار . ولكن توينبى عارض هذا الرأى أيضاً ، ورأى أن الحافز إلى العمل والإنتاج ، وما يترتب عليهما من تقدم العلم ، وتوفير أسباب التقدم الحضارىّ والازدهار الثقافىّ ، يقوى أو يضعف بمقدار توفر أسباب الطمأنينة والاستقرار أو عدم توفرها .

ونحن نستشهد على صحة هذا الرأى الأخير بفيضان النيل الذى قلنا إنه حمل قدماء المصريين على إعمال الفكر ، والاشتغال ببعض العلوم أملاً فى الاهتداء إلى وسائل تحدّ من مخاطره ، وتمكنهم من تلافى المجاعات فى سنوات انخفاضه الذى

(١) تراجع صفحة ١١ من كتاب « الجغرافيا توجه التاريخ » ، السابق الذكر .

يسبب القحط . وارتفاعه الذى يسبب الغرق . . . وكذلك كان هذا الفيضان سبباً فى إذعان قدماء المصريين لحكومة مركزية قوية وطدت النظام ، ومكنت الحضارة المصرية القديمة بعد أن استقرت لها الأمور ، من قطع مرحلة هامة من مراحل تقدمها .

وأكد الجغرافىّ « ريتر » الرأى القائل بأن لبعض البلاد أثراً تثقيفيًّا فى شعوبها ، ووافقه جوردون إيست على ذلك . واستشهد على صحة الرأى المذكور بتاريخ بلاد الإغريق[١] .

وذهب « هنرى توماس باكل » فى كتابه « تاريخ حضارة إنجلترا » مذهباً آخر فيما للجغرافيا من أثر فى تثقيف الشعوب . فلم ينسب هذا الأثر إلى المناخ ، أو إلى توفر الغذاء . أو إلى الموقع الجغرافى الذى يعرض بعض البلاد لغارات الغزاة ، أو يجنبها تلك الشرور ؛ ولكنه ينسبه إلى ما تتميز به المناظر الطبيعية فى بعض البلاد من جمال خلاب يهذب مشاعر أهلها ، ويسمو بذوقهم ، ويؤهلهم لتحقيق نهضة أدبية وفنية هى فى نظره العماد الرئيسىّ لكل حضارة .

والقصور الذى يعتور بحوث بعض المؤرخين والجغرافيين فى هذا الموضوع يرجع إلى تشبثهم بنسبة التقدم الحضارى ، والازدهار الأدبىّ والفنىّ فى مختلف البلاد ، إلى عامل واحد دون سائر العوامل التى لا شك فيما لها من أثر مشترك متشابك فى تحقيق ذلك التقدم والازدهار .

ولعل القارئ يستطيع استخلاص الحقيقة فى هذا الصدد من مختلف الآراء والشواهد التاريخية الواقعية التى عرضناها .

---

(١) كتابه السابق الذكر ص ١٢٦ .